الفصـــل الثانـــي

في الشخصيـــة الإقليميـــة

إن تكن الجغرافيا في الاتجاه السائد بين المدارس المعاصرة هي "التباين الأرضي Areal differentiation"، أي التعرف على الاختلافات الرئيسية بين أجزاء الأرض على مختلف المستويات، فمن الطبيعي أن تكون قمة الجغرافيا هي التعرف على "شخصيات الأقاليم Personality regional". وإذا كان الإقليم بهذا التعريف هو قلب الجغرافيا، فمن المنطقي أن تكون الشخصية الإقليمية هي قلب الإقليم، ومن ثم بيقينٍ أعلى مراحل الفكر الجغرافي(١).

والشخصية الإقليمية شيء أكبر من مجرد المحصلة الرياضية لخصائص وتوزيعات الإقليم، أي شيء أكبر من مجرد جسم الإقليم وحسب. فهي إنما تتساءل أساسا عما يعطي منطقة تفردها وتميزها بين سائر المناطق، محاولة أن تنفذ إلى "روح المكان" لتستشف "عبقريته الذاتية" التي تحدد شخصيته الكامنة. وهذا هو فكرة الهيكل المركب Compage عند بعض الجغرافيين الأمريكيين أو ما يعرف كاصطلاح عام "بعبقرية المكان genius loc.".

وإذا كانت ميزة وميسم الجغرافيا وصميم أصالتها، وهي أيضا ما ترد به دَيْنَها للعلوم الأولية التي تأخذ منها، هي أنها كما يقول لابلاش: "**فن عدم فصل ما وصلت الطبيعية**"، فإن هذا لا يتبلور كما يتبلور في دراسة الشخصية الإقليمية. إن روح المكان- نحن نَخْـلُص- هو أكثر من أي شيء آخر روح الجغرافيا كما تحدث عنه مثلا مؤلفا كتاب "روح الجغرافيا وهدفها".

---

(١) شخصية مصر، ج ١، ص ١١ – ٤٧، عالم الكتب، القاهرة، ١٩٨٠.

ومن الواضح بعد هذا أن مثل هذه النظرة ليست تحليلية وحسب وإنما هي تركيبية في الصف الأول، نظرة واسعة عالمية Weltanschauung كما يقول الألمان أو كلية Holistic بتعبير سمطس الشهير (Hlism). إذ لا شك أننا إذا كنا نريد أن نقتنص روح المكان ونمسك به وهو فوار نابض بالحياة حتى نضع أيدينا في النهاية على "كلمة السر" في الإقليم وعلى مفتاحه أو "شفرته" التي تمنحه أخص خصائصه وتفتح أعمق أعماقه، فإن المطلوب إذن إنما هو دراسة للكائن العضوي وهو حي غض وفي مجموعة ككل مُتَعَضْوِن وليس كتحليل أو كتقطير إتلافي يمزق أو يفتت هذا الروح ولا كفحص تشريحي لجثة ميتة أو محنطة Post- mortem.

ليس هدفنا، يعني، أن نشرح المكان لنقدم عن أعضائه وأجزائه موسوعة كتالوجية وصفية، أن تكن صافية وافية إلا أنها خاملة راقدة. ولكن الهدف أن نعتصر روح المكان ثم نستقطره في أدق مقولة علمية مقبولة ويتركز في أكثف كبسولة لفظية ممكنة. ولمثل هذا فنحن بحاجة إلى جغرافية تركيبية في المقام الأول، جغرافية علوية رفيعة، قل "سوبر – جغرافيا Super – geography"، لا تقف عند حدود وصف المكان بل تتعداه إلى فلسفة المكان.

بل إننا لنذهب إلى أبعد من هذا. إن هدف العلم، أي علم، وهو أيضا مقايسه ومحكمه كعلم حقيقي، إنما هو الوصول من آلاف التفاصيل ودقائق الجزئيات وركام المعلومات إلى الكليات العامة والمعادلات المركبة أو البسيطة الضابطة والقوانين الأساسية الحاكمة. ولقد حاول آينشتين، على سبيل المثال، أن يختزل الكون كله في معادلة رياضية واحدة.

والجغرافية، لا ندري لا ندري لسوء الحظ أو لحسنه، علم الخاص specific لا العام generic، أو بلغة فلاسفة المعرفة علم تصويري idiorgaphic أكثر مما هو علم تقعيدي nomothetic، أو بلغة مبسطة علم

المتفرد المتوحد المطلق unique، sui generic لا النمطي المتكرر النسبي. فالجغرافيا كالتاريخ لا تعيد نفسها بالضبط، ولا الإقليم يكرر نفسه بصرامة. ومن ثم فلا "قانون" للإقليم من حيث هو، ولا سبيل إلى أن نطمع في وضع "أقانيم الأقاليم" كما قد نقول. ولكن على الأقل فلنحاول من الناحية الأخرى أن نصل، إن لم يكن إلى المعادلة الشاملة الأحادية الحاكمة، فإلى أنسب عدد من المعادلات الجزئية "ولوغاريتمات الجغرافيا" التي تعد مفتاح الإقليم وتختزل روح المكان فيه.

وعدا هذا، فمن الواضح كذلك إلى حد البديهي أن دراسة الشخصية الإقليمية لا تقتصر على الحاضر وإنما هي تترامى بعيدا عبر الماضي وخلال التاريخ، لأنه بالدور التاريخي وحده يمكن التعرف على الفاعلية الإيجابية للإقليم وعلى التعبير الحر عن الشخصية الإقليمية. فالبيئة قد تكون في بعض الأحيان خرساء، ولكنها تنطق من خلال الإنسان، ولربما كانت الجغرافيا أحيانا صماء، ولكن ما أكثر ما كان التاريخ لسانها. ولقد قيل بحق: إن التاريخ ظل الإنسان على الأرض، بمثل ما أن الجغرافيا ظل الأرض على الزمان، بينما يضيف قول آخر أن معظم التاريخ إن لم يكن "جغرافية متحركة – moving geography"، فإن بعضه على الأقل "جغرافية متنكرة in disguise".

لهذا كله نجد أن البحث في الشخصية الإقليمية لم يكن من عمل الجغرافيين وحدهم، بل بحث فيه المؤرخون كثيرا ابتداء من الجيولوجي الأركيولوجي سيريل فوكس في مؤلفه المشهور "شخصية بريطانيا The Personality of Britain" إلى حسين مؤنس في "مصر ورسالتها" وشفيق غربال في "تكوين مصر" إلى صبحي وحيدة في "أصول المسألة المصرية" وحسين فوزي "سندباد مصري".

ولكن لعل طريق الجغرافي أكثر غنى وتنوعا مع ذلك في المناهج

والطرائق، وربما كان كذلك أرحب آفاقا حيث يجمع تلقائيا بين الزمان والمكان ابتداء من الجيولوجيا حتى الأركيولوجيا ومن الفلك حتى الأنثروبولوجيا، وذلك إذا اقتصرنا فقط على ذكر أقصى فروع العلم المتطرفة وأطرافه الهامشية الحدية. وفضلا عن هذا فإن وحدة مصر الحقة إنما تتبلور في جغرافيتها الباقية، أكثر بيقين مما تبدو في تاريخها المفعم بالمتغيرات، والاستمرارية بالبديهة أبرز في جغرافيتها، فيما أن الانقطاع أغلب بالمقارنة على تاريخها.

لهذا وذلك نجد الشخصية الإقليمية مطلبا أثيرا بين كبار الجغرافيين ابتداء من لابلاش في مقدمته القيمة لكتاب لافيس عن تاريخ فرنسا "شخصية فرنسا الجغرافية" إلى أندريه زيجفريد في كتابه "سيكولوجة بعض الشعوب" ومن ماكيندر في "بريطانيا والبحار البريطانية" حتى حزين في دراساته الأصيلة المتعددة والوضاءة عن البيئة والموقع في مصر عبر التاريخ.

في طبيعة الجغرافيا

وإنه لطبيعي – أليس كذلك؟ – أن يكون للجغرافي كلمته في هذا المجال، وإلا فإلى من يتجه المواطن العادي والمثقف العام لمعرفة جوهر وطنه؟ إلى من سوى ذلك الذي "يتخصص في عدم التخصص" كما وصف، وهو هكذا وصف لأنه الأخصائي الذي يضرب بحرية في كل العلوم، يربط الأرض بالناس، والحاضر بالماضي، والمادي باللامادي، والعضوي بغير العضوي، ويكاد يتعامل مع كل ما تحت الشمس وفوق الأرض – كل أولئك، وهذا تحفظ شرطي وشرط قطعي، من خلال وجهة نظر موحدة صارمة وأصيلة هي الإقليم والفكرة الإقليمية.

والجغرافيا بهذا ليست كما قد يبدو على السطح علما موسوعيا فضفاضا أو بحرا لا ساحل له، بل هي علم تكاملي بالضرورة، بل العلم التكاملي بامتياز. الجغرافيا إنما هي الجسر الذي يربط بين العلوم الطبيعية والاجتماعية، وتصل ما

فصل التخصص الأكاديمي الضيق. الجغرافيا، باختصار، ليست علم "من كل بستان زهرة omnium gatherum"، ولا الجغرافي هو "حاشد محتطب بليل rag-and- bone intellectual" وحتى إن بدت الجغرافيا على السطح علما موسوعيا، فإنها في الجوهر وبالفعل علم ملحمي على موسوعيته، علم العالم لا علم العلوم.

لا، وليست الجغرافيا بهذا مجرد علم معقد ناقل، شمولي دون إضافة كما قد يتوهم أو يهمهم أو يتبرم البعض. نعم، هي بالتعريف والتصنيف المنهجي علم مركب ثانوي لا أولي إلى أبعد حد. ولكنها في جوهرها الفلسفي علم بسيط أساسا، بل بسيط للغاية، تكاد تقول غريزيا أو فطريا، وإن شئت فقل هي بين العلوم علم الفطرة كما أن الإسلام بين الأديان دين الفطرة. والفطرة هنا هي أساسا فكرة الإقليم: الأرض مختلفة بطبيعتها، وما على الجغرافيا إلا أن تطالع وترصد وتدرس اختلاف الأَرَضِينَ: هذا كل شيء. ومن هذه الطبيعة ولا شك جاء قدم الجغرافيا منذ أول مراحل المعرفة الإنسانية، ثم كان خلودها بعد ذلك كعلم مستقل لا غنى عنه قط ولا بديل له على الإطلاق.

أما أنها علم ناقل فضولي متطفل على سائر العلوم جميعا، مجرد علم تسجيلي وثائقي، فليس صحيحا ذلك دونما تحفظ وعلى وجه الإطلاق. فواقع الأمر أن الجغرافيا بالدرجة الأولى علم "ميتابولي metabolic" إن صح التعبير، أعني علم تشرب وهضم وتمثل ثم إعادة إفراز وتشكيل وتخليق. أو قل هي علم تصنيع لا تعدين، إن أردت تشبيها ميكانيكيا بدل البيولوجي. وحقا، قد لا تكون بهذا أو بذاك علما خالقا على مستوى الحقائق والمعلومات، غير أنها بوظيفتها الأساسية من الربط ورصد العلاقات تخلق جديدا بالتأكيد على مستوى الأفكار والأنماط. علم ناقل إذن كمعرفة، خالق كفكر. ولكن حتى عند ذلك قد يعترض البعض قائلا: بل إعادة خلق هو أكثر منه خلقا أوليا مطلقا. ولكن، حسنا، يبقى

مع ذلك أنه خلق في حدود إعادة الخلق – أليس صحيحا؟ والجغرافي بالتالي، وعلى أية حال، قارئ كل شيء، ولكنه كاتب جغرافية فقط، يأكل كل شيء omnivorous، غير أن معدته لا تفرز إلا جغرافية صرفا.

عن طبيعة الشخصية الإقليمية

الآن فإن من المحقق أن طبيعة الجغرافيا الكاملة الكامنة هذه لا تحقق في شيء كما تحقق في دراسة الشخصية الإقليمية. فليست الشخصية الإقليمية مجرد تقرير حقيقة علمية مطلقة يمكن أن تخضع تماما للقياس الرياضي والإحصائي، وذلك على الرغم من أنها تعتمد أساسا – وما ينبغي لها غير ذلك – على مادة علمية موضوعية بحتة. إنها عمل فني بقدر ما هي عمل علمي، وذلك رغم ما قد يجده البعض في هذا من تعارض ظاهري فكما يقول جلبرت أحد دعاة الشخصية الإقليمية ووريث مدرسة أكسفورد: "إن الجغرافيا هي فن التعرف على شخصيات الأقاليم ووصفها وتفسيرها"، ويضيف أن "شخصية الإقليم كشخصية الفرد يمكن أن تنمو وأن تتطور وأن تتدهور ووصفها لا يقل صعوبة".

على أننا مع ذلك نرى أن "فن" تناول المادة العلمية لا يكفي وحده للتشخيص الإقليمي، بل لابد كذلك من إطار من "فلسفة المكان" يحدد تلك الشخصية. ولهذا فنحن أيضا مع دبنام حين يعرف الجغرافيا بأنها "فلسفة المكان". ومع أندريه شوللي حين يعتبر الفكرة الجغرافية "كنوع من فلسفة الإنسان باعتباره الساكن الرئيسي للكوكب الأرضي" ومع ماكيندر حين يتحدث عن "الجغرافيا الفلسفية" وذلك دون أن نذكر دعوة البعض المتطرفة إلى ما يسمونه geosophy. ولا يعني هذا أو ذاك فلسفة محلقة غامضة، بل فلسفة عملية واقعية concrete philosophy قد ترتفع برأسها فوق التاريخ ولكن تظل أقدامها راسخة في الأرض، فلسفة تحلق بقدر ما تحدق. والواقع أنه لا انفصال للجغرافيا بحال عن صيغة فلسفية ما منذ قال سترابو عنها: إنها من عمل الفيلسوف, إلى أن قال كون: "إنما الجغرافي الجيد فيلسوف".

ولكن بدا أن هذا يجعل للجغرافيا منهجا خلاسيا متنافرا يتأرجح ما بين علم وفن وفلسفة، فإننا نبادر فنذكر بأن الجغرافيا نفسها وبطبيعتها علم متنافر غير متجانس في مادته الخام، وليس غريبا أن يكون كذلك في منهجه. ماكيدر، مثلا يعتبر الجغرافيا بوضوح فنا وفلسفة معا. هذا بينما يحسم ستامب لنا الموقف بإيجاز أبلغ من كل إطناب حين يقول: "إن الجغرافيا في نفس الوقت علم وفن وفلسفة" ويمكن أن نضيف للتوضيح: علم بمادتها، فن بمعالجتها، فلسفة بنظرتها. والواقع أن هذا المنهج المثلث يعني ببساطة أنه ينقلنا بالجغرافيا من مرحلة المعرفة إلى مرحلة الفكر، من جغرافية الحقائق المرصوصة إلى جغرافية الأفكار الرصينة التي تخاطب العقل وتتوجه إليه وتقدم غذاء جيدا متوازنا للفكر أكثر مما تستدعي الذاكرة (أو تستعديها!) بالحشو الممل والسرد السقيم الذي يتحدى الذكاء والذاكرة معا وعلى حد سواء. الحقائق والمعلومات كغذاء للفكر وكوقود للعقل، ما يتبقى في الذهن بعد ركام التفاصيل والجزئيات اللانهائية ليصبح خامة يعمل عليها الوعي الباحث – ذلك هو أعلى أهداف ومراحل العلم.

وكما قلنا، لا تتحقق هذه الطبيعة المركبة كاملة كما تتحقق في الشخصية الإقليمية. والواقع أن دراسة الشخصية الإقليمية تبدأ حيث تنتهي دراسة الجغرافيا الإقليمية التقليدية بالمعنى المدرسي المعروف، ثم تتجاوزها لتمثل التتويج القمي والعلوي لها، فهي على مراحل الجغرافيا والفكر الجغرافي. فإذا كانت الجغرافيا الإقليمية تهتم أساسا بدراسة "جسم" الإقليم، فتتناوله على الطريقة الأكاديمية بالتشريح والتحليل لتحديد أقاليمه الثانوية ودون الثانوية وتصف معالمه وملامحه النوعية وتوزيعاته وعلاقاته المكانية، فإن هدف الشخصية الإقليمية هو "روح" الإقليم قبل جسمه وبعده، مثل جسمه وفوقه. الجغرافية الإقليمية العادية هي وصف المكان، حيث الشخصية الإقليمية هي فلسفة المكان. الأولى جغرافيا تقريرية، ولكن الثانية جغرافيا علوية تجاوزية. Super – geography, transcendental geog.

والحقيقة أن الملاحظ أحيانا أن الجغرافي قد يدرس على البعد أو على الورق إقليما ما دراسة أكاديمية مستفيضة، يحدد خطوط التضاريس والجيولوجيا ويحل المناخ والنبات والتربة, ويصنف ملامح الإنسان, ويصف معالم السكان والإنتاج والاقتصاد.. إلخ، حتى إذا ما أتاه زائرًا على الطبيعة وجد نمطا من الحياة الجارية اليومية يرتبط بصميم البيئة الجغرافية ولكنه هو شخصيا يجهله ولا تسعفه فيه دراسته السابقة تلك. هذه الحلقة المفقودة هي بالدقة روح المكان وجوهر الإقليم.

لهذا فإن المطلوب جغرافية حية، "جغرافية الحياة" بالدقة، لا بمعنى الجغرافيا الحيوية، ولكن بمعنى "جغرافية الحياة اليومية life geography everyday"، تلك الذي إذا عرفته عرفت كل شيء عن نمط وطبيعة وظروف وقوانين الحياة في هذا المكان أو ذلك، جغرافية الحياة التي إن بدأت من أعلى آفاق الفكر الجغرافي في التاريخ والسياسة فإنها لا تتقاعس عن، أو تستنكف، أن تنفذ أو تنزل إلى أدق دقائق حياة الناس العادية في الإقليم، باختصار جغرافيا تنسج الحياة اليومية ودورة حياة الناس الجارية في نمط الإقليم ومورفولوجية الأرض.

ودراسة الشخصية الإقليمية بهذا المفهوم لا تجب الجغرافيا الإقليمية العادية ولا تلغيها بالطبع، وإنما هي تكملها بل وتصحح عيوبها وقصورها، وكلتاهما على أية حال ناقصة بغير الأخرى. فهي بطبيعتها الديناميكية المتوثبة المتسائلة تدفع عن الجغرافيا تلك التهمة الشائعة من أنها علم "سكوني" جامد أو خامل، فتنفث الحياة في عظامها وتدفع الدم في شرايينها التي قد تتصلب أحيانا.

من الناحية الأخرى فليست الشخصية الإقليمية دراسة ذاتية غير موضوعية، ولا هي تقديرية بدل التقريرية، كما لا تعد من قبيل الأحكام القيمة judgement values، وإنما هي في الجوهر والأساس تقييم علمي للدور

الجغرافي، للنمط الجغرافي، وللفاعلية الجغرافية، إنها جغرافية طموح، تتجاوز الجغرافيا التقليدية ولكنها لا تتجاوز المكان ولا العلم.

دراسة مصر

والبحث الحالي – وله جذور أو ربما بذور في عمل سابق للكاتب يحاول أن يرسم صورة عريضة ولكنها دقيقة بقدر الإمكان لشخصية مصر. ومصر لا شك موضوع مثالي لهذا البحث نظرا لما تمتاز به من طبيعة جغرافية واضحة الحدود والتقاطيع، ولما تملكه من تاريخ ألفي حافل. الغريب في الأمر، مع ذلك، أن مصر جغرافيًّا وبالمقاييس العلمية العالمية الرفيعة ما تزال إلى حد بعيد "أرضا بكرا" ولا نقول "أرضا مجهولة". الأغرب أن هذا يصدق على كلا المستويين الأكاديمي المتخصص والثقافي العام.

حقا لقد كتب شيء لا بأس به عن جغرافية مصر بمختلف اللغات، خاصة الأجنبية، ولعلماء أجانب غالبا، إلا أنه على قيمته وخطره مجرد نواة متواضعة نسبيا أو شظايا متناثرة هنا وهناك، والكل لا يعدو قطرة من محيط إذا كان المستهدف مكتبة جغرافية وطنية بالمعنى العالمي. وليس في العربية حتى الآن مرجع علمي واحد عن جغرافية مصر، مرجع جامعي أو فوق جامعي جدير بالكلمة. بل ولعلك واجد لدينا بالعربية كتبا جغرافية عن بعض البلاد الأجنبية أو العربية أضخم وأجل مما نملك عن مصر.

هنا في حين أن الجغرافيا ليست بالضرورة "عن البلاد النائية الغريبة"، ليست دائما شيئا نذهب إليه، وإنما هي ببساطة حولنا، تحيط بنا، ونحن فيها، كالهواء نتنفسها. الجغرافيا – كالإحسان – تبدأ ببيتك، "بجغرافية – الوطن home geography". فكل شبر من أرض مصر، كل قرية، كل حقل، كل تربة في الوادي، وكل جبل أو صخرة في صحارينا، ينبغي أن تغطى بمونوجراف مفصل مكثف على حدة.